الباب الثالث

قوة الحيـــــــاة فى الميزان

نقد نظرية برنارد شو ، ومقارنتها بالنظريات الفلسفية المعاصرة لهـــا ..

فى أوهام نظرية جورج برنارد شو الجديدة « قوة الحياة وقدرتها على الخلق » يقف الإنسان حائراً مكتوف اليدين ، مشلول الحركة ، مبهور الأنفاس ، لأن مايقرأه لقادة الفكر والرأى من نظريات جنونية تكاد تهدد كيان الديانات ، وتهدم أركانها ، وتزعزع دعائمها ، وتسبب للعامة متاعب جمة ، وهم أحوج ما يكونون إلى الهدوء والسلام ، وإلى الراحة والاستقرار .

من هو برنارد شو؟ ذلك الذى يطلع على الناس بنظريته هذه ، فيقلق رجال الدين ، ويقض مضاجعهم ، ويجعلهم يثبطون من جديد ، ويعملون فى المجتمع لرد فيضان الإلحاد عن الناس ، ويرفعون أكفهم إلى السماء ضارعين أن تريحهم من هذا الشيطان الأفاك الذى يتدثر فى ثوب الكفر المطلق على هيئة إنسان يعيش بينهم . . فما يجيب لهم السماء طلباً من طلباتهم المتتابعة ، بل تمعن فى إطالة عمره فتزيد من قلقهم وتضجرهم . . .

لماذا يحوط برنارد شو هذا الغموض ، وهو يدعى بأنه مفكر حر؟ ولماذا يتشبث المفكرون الأحرار بمبادىء عتيقة عفى عليها الزمان ؟ . فى حين أن خط مستوى المقارنة يجب أن ينشد الحرية كما هو مفروض ؟

فشل المفكرون لأنهم لا يفكرون بحرية كافية . أو لأنهم لا يعرفون كيف يحافظون على خط مستوى التفكير مستقيما فى ذاته ، منظما على الدوام . إنهم ينحرفون عن ذلك الطريق القويم ، ويفسدون الطرق الملتوية الشائكة ، فيخرجون على الإنسان بنظريات وديانات جديدة تسلطت على عقولهم واستحكمت على كل خلجة

من خلجات نفوسهم، فظنوا أنهم بذلك إنما ينيرون الطريق أمام البشر، ويكتشفون سر الخلق والوجود، وما علموا أنهم يضربون في الهواء، في أفق لا يقفون له على مدى أو نهاية !!

هذا هو هربرت سبنسر أحسن فيلسوف ظهر إلى الآن.

سار في طريقه ليبدد الظلمات، ثم وقف فجأة على قاعدة صخرية صماء. وعمل أزميله في هذه القاعدة الصخرية علّه يصل إلى المجهول. وظل ينحت وينحت خلال الزمان والمكان، حتى توقف به الأزميل فجأة، وما عاد بعدها يعمل أو ينحت ملياً واحداً في صخور الزمان والمكان فيقول:

ووراء هذا... المجهول !!

وأعلن أنه من الخطأ الفادح أن يحاول الإنسان جمع معلومات خاصة عن «إله» غير معروف. من العسير الوصول اليه. ثم يرى علم اللاهوت بأنه علم لا يؤدي إلى معرفة شيء «إذن فهو علم مبدد...»

ثم بدأ ينشر تعاليمه أو «المبادىء الأولى» معلناً بأن المجهول هو على العموم منظم ومحسن كبير. كما أن من أبرز صفاته كراهية التسلح، وحب الصناعة والخلق. أو بمعنى آخر كان شيئاً مماثلاً لهربرت سبنسر نفسه !!

واستمر سبنسر على هذا النمط وهو يلقي بأفكاره وآرائه عن الحقيقة المغلقة والتطور، تطور الحياة والعقل والمجتمع والأخلاق، فيتهافت عليها كثيرون من الناس والمفكرين، ويحاولون أن يقفوا منها على حل مناسب، حتى ظهر جورج برنارد شو والابتسامة العريضة تملأ وجهه، وبيد واحدة أمكنه أن يحرر العامة من قيود سبنسر وتندال وغيرهما من ذوي المواهب، وهم يسيرون بسفينة الفكر تجاه شاطىء «الوعي الأعظم».

وبدا أن يختصر شو الطريق، ويأتي بالحقائق دفعة واحدة، لذ له أن يسير في طريق سبنسر. ويقع في نفس الأحبولة التي نصبتها له أجيال الفكر المريدة.

فيبحث عن ذلك «الإله» المجهول الذي بحث عنه سبنسر، فإذا تلمسه أطلق عليه

اسم « قوة الحياة » . هذه القوة تعشق الجمال والحق . وتعمل التجربة تلو التجربة وترتكب أخطاء . ولكنها لا تحجم ولا تغضب لخطئها ، بل تستمر وتستمر تلقى بأبحاثها وتقوم بتجاربها ، لأنها تسعى إلى الكمال وتحيف في سبيله كل فشل .

ومن محاولاتها العديدة أنها نجحت في إيجاد عالم وأرض وسماء . جاءت كلها بنفس الطريقة التي أطالت بها الزرافة رقبتها . . . الحاجة الماسة الشديدة . . .

وأصبحت هذه العقيدة الجديدة ـ قوة الحياة ـ دستور كثيرين من أحرار المفكرين في أخريات القرن التاسع عشر ، وهذا القرن العشرون .

ويدعي برناردشو أن نظريته مبنية على قواعد علمية بحتة . وأمضى حياته كلها يحاول أن يجعل الناس تعتقد فيما يسميه « تاريخا طبيعيا علميا أصليا أنظر ص ٧٠٣ مقـــدمات »

إنه يريد أفكارا حرة منزهة . . « تسمو وتضاف إلى مجموعة المعرفة الحقة التي نسميها علما . . مقدمات ص ٦١٣ »

ولكن اضطرابا مخيفا ، وارتباكا شديدا يجثمان على الصدور . فالتفكير الحر يجب أن يكون منزها من الاضطراب والارتباك ، فما « قوة الحياة » إلا فروض وأوهام . وكيف يستقيم التفكير الحر مع مجموعة من فروض وأوهام ؟

« الفكر الحر الحديث كالعجلة تماما تدور على محور ثابت وتتحرك في طريق واحد ، بعيدة عن الحقائق . . بعيدة عن الذوق السليم .

هكذا يفسر الفكر الحر في هذه الأيام ـ مجموعة كبيرة من المفكرين الأحرار . . .

لا يحضرنا الآن غير فكرة واحدة ، تطورت تطورا ملموسا ، وتقدمت تقدما لا بأس به لمدة قرون طويلة ، وهذه الفكرة فكرة صحيحة منزهة ، لا التواء فيها ولا اعوجاج ، تنير أمام الانسان ظلام الحياة ، وتبدد له خرافات الناس وأوهامهم ، ولكن الذين يعجبون بنظرية « قوة الحياة » يرفضون هذه الفكرة عن إباء وشمم أي أنهم ينكرون وجود الإله العظيم المسيطر على الكون بقوته ، الخالق الجبار ، خالق الأرض والسماء ، والكواكب والشموس والأقمار .

كانت هذه الفكرة ، قد أضيفت إلى مجموعة المعرفة التى نسميها علما ، قبل أن يولد جورج برناردشو . ومن ثم تمكنت فى النفوس ، وتركزت فى هيكل المجتمع ، وحصلت على مكانة مرموقة ، وهددت القوانين العتيقة والخرافات والأساطير بالموت والزوال . ودانت اليها جميع القوانين الجديدة بمجرد أن اقتنعت بها النفوس هذه القوة الأزلية التى تسيطر على الكون فى وسعها أن تلهمه نارا ، وفى استطاعها أن تحوله إلى ثليج وبرودة . . ونطن الفرد العادى إلى هذه القوة واعترف بها ، كما اعترف بقانون الجاذبية مثلا . وحتى جماعة المهندسين ، وأرباب الهندسة ، وجدوا الفكرة أبدية جوهرية فسموها القانون الثانى لعلم الحركة الحرارية ـ ثرموديناميكا .

يقول علماء الهندسة إن العالم يميل إلى التعادل الحرارى .

ونحن نعيش فى عالم تبرد فيه الأشياء عاما بعد عام .

إن كل ما فى الوجود يعتمد على هذه القوة ذاتها ، لارتباط كل شىء بها ارتباطا وثيقا فى كل يوم . وفى كل لحظة من لحظات الحياة .

هى ـ قوة ـ مستقلة استقلالا تاما عن غيرها من القوى .

وعلى هذا فإذا كان العلماء يقولون ويعترفون بالحركة الحرارية . فالفرد العادى سواء عرف هذه القوة أم لم يعرفها ، فإنه متأكد منها تمام التأكد تأكده من بزوغ الشمس كل صباح .

هذه الفكرة ذاتها هى أم قوانين العلوم جميعها . كل الظواهر تدور حولها فى رهبة . لم تصطدم بها حادثة واحدة ، ولم تشتبك ظاهرة واحدة معها فى عراك . لأن كل الظواهر تخرج منها . فالحركة والطاقة والحرارة والحياة تخرج منها هى . . كامنة فيها ، ومن حقها اذن أن تسيطر على العلوم وتتحكم فى العقول من غير أن يناقشها فى حكمها إنسان !

إذا نبذت هذه الفكرة أو القوة أو تقولت عليها فكأنك ، والحالة هذه تنبذ العلوم الوضعية جميعها وتلقى بها جانبا .

ولكنك إذا اعترفت بها فكأنك تهدم دين التطور هدما من أساسه ، وتلقى بنظرياته إلى أعماق المحيط . . !

هنا ينشأ الصراع من جديد ، ويضل العقل ، ويغلق عليه الفهم ، وتشتد حيرته ولكنها أمام جماعة معينة من الناس ، هؤلاء الذين يقلبون الأمور على جميع وجوهها ، لا تقف عند هذا الحد ، بل يحاولون أن يفسروا هذه الوقفة ويجدوا لها تعليلا مناسباً ، ولعل أبرز هؤلاء هو صاحبنا جورج برنارد شو !!

أما عبدة التطور وعشاقه فيحاولون جاهدين أن يتملصوا من القانون الأزلى المحكم ـ الاعتراف بوجود الواحد القهار ـ ويرفضوا الاعتراف بالحقائق التى يحكمها العقل ويشير اليها المنطق .

وهؤلاء العباد والعشاق لا يصمدون للعاصفة ـ عاصفة النقد ـ وأول ما يفعلوه أن يتشبثوا كالغريق بنظريات جاليليو ونيوتن ، ويقفزوا إلى النتائج قفزاً من غير حساب ، ويشيروا إلى ملاحظة البندول وسقوط التفاحة !!

ولا تلبث هذه الشرذمة من العلماء أن تجد أعمال « كلفن » وتعارض حاجة الحياة إلى إله حقيق يسيطر عليها ويجعلهـــا تدور على الدوام ، لأن الحياة عندهم خرجت من بطون معاملهم وترمومتراتهم وأنابيب اختباراتهم !!

إنها هذه الشرذمة التى تعمل بالمقياس ، وتجرى تجاربها على أزواج الحمام والخنازير لتبرهن على وجود « إله » يتطور فى المادة تحت رحمة أخطائه ، رغم أنهم لا يفقهون شيئاً عن أسلوب وبحث « كلفن » التركيبى ، وطريقته فى جمع الحقائق الصحيحة فى خطوات واسعة ، ثم يرتب الظواهر كما تظهر أمامه ترتيباً صريحاً لا خطأ فيه . إنهم يخلطون بين الواقع والخيال ، بين الحق والباطل . ثم لا يقفون عند هذا الحد ، بل يعودون ليشوهوا نظرية دارون ـ وهم أنفسهم الذين مجدوها وارتفعوا بها إلى عنان السماء ، ويحاولون أن يقلصوها فيجعلوها تطابق المعلومات الجديدة المختلطة التى توصلوا اليهـا اعتباطا ، فيهدموا أنفسهم ، ويهدموا أبحاث الأمس ويقوضوها شر تقويض ..

إنهم يريدون أن يجمعوا الأشياء من الناحيتين ، وكان يجب عليهم أن يواجهوا الحقائق ويدرسوها دراسة دقيقة ، لأنها ستقودهم إلى الطريق الصحيح . .

إنهم يضربون - كما قلت - فى صحراء واسعة لا نهاية لها .. إذا لم يعترفوا بهذا القانون الأزلى - الإله الواحـــد خالق كل شىء - فإنهم بذلك يهدمون كل نظرية فلسفية أو خلقية أو اجتماعيـة دونتها الكتب . لا حق ولا جمال ولا شىء غير « الرجل » - كما يقول أمبير - يغرق بدون أمل فى بصاقه !!

كانت أبحاث الفكر منظمة حتى عام ١٨٥١ ولكن فريقا من العلماء استهوته آراء لامارك وداروين وهكسلى وهيجل ، المتطرفة ، وتجاهل آراء رعيل آخر من المفكرين الأحرار أمثال كارنوت وكلوزز وجول وكلفن .

الإنسان بطبعه يميـــل إلى الشر . فما أكثر هؤلاء الذين انساقوا إلى أفكار الفريق الأول يعبدونها ويمجدونها ، ويتجاهلون أفكار الفريق الثانى النيرة الحية ..

فى عام ١٨٨٧ كتب كلفن يقول : « بدأت أبحاثى منذ أربعين سنة مع جول ، فوقفنا على نتائج هامة لنظرية الحركة الحرارية . وهذه النتائج أهم وأغلى قيمة من أى معلومات جمعتها فى حياتى ، ويمكن أن يجمعها إنسان تستهويه العلوم ، وتستحوذ عليه كل حواسه طيلة حياته .. »

ولكن الناس سرعان ما يهملون العلوم التى تحقق ضرورة وجود « خالق اسمى » أو عند ما تحاول الأبحاث البيولوجية أن تهدم أساس هذا الاعتقاد الرزين المكين .

لقد طغت على العالم أفكار الملاحدة ، وأن الطبيعة هى التى خلقت نفسها ، وأن المعجزات لا تحدث . وأن العالم فى تقدم مستمر ..

ولم يصادف العلماء المدققون نجاحاً يذكر ، كما أنهم لم يمنحوا فرصة لتفسير الحقائق التى توصلوا اليها . ويثبتوا للناس أن الأشياء لا تخلق نفسها بنفسها ، وأن الطبيعة فى ذاتها معجزة وأى معجزة ! وأن العالم يسير ببطء نحو نهايته ، ولكن أنى للناس أن يسلكوا طريق الخير ..

إن الشيطان يقودهم فى طريق الشر بمغرياته وأفانينه ومفاتنه !!

وانفصل الفريقان إلى قسمين :

فريق يقول : الحياة تقفز بخطى سريعة فى طريق الكمال .

وفريق يقول : الحياة تنهار وتنهار إلى الأعماق . .

أما الفريق الأول فعماده جماعـــة الديمقراطيين الاجتماعيين ، والفوضويين . والماركسيين ، ومحللى القوى العاقلة ، والعلائيين ، والروائيين ، والدراميين ، والشعراء ، يقدمون جميعاً أناشيد النصر أو أغنيات الحرب إلى « قوة الحياة » ينساق الكل ويتسابق فى أفق لا نهاية له . .

أما الفريق الثانى فعماده فريق واحد عرف باسم « المفكرين الأحرار فقط » مثال ميشيل فراداى - لوقت قصير - وكلارك ماكسول وجرجور منـــدل . وبلغت درجة الجنون بالفريق الأول حداً بعيداً ، حتى اكتشف الراديوم عام ١٨٩٨ ، ومعاهدة فرساى عام ١٩١٩ . ثم بدأ ينفرق ، وينحل تدريجياً ، ويتلقى الصفعات والضربات قوية قاصمة .

وسرعان ما اختفت اللافتتان « صعود وهبوط » وحلت محلهما لافتة جديدة. وهـذا الدوران الجديد لم يكن غير « نظرية النسبية » تبادل الانتساب أو حال النسبة . وسرعان ما انضم اليها أحزاب اليسار بسرعة عجيبة . . ولـكنهم سرعان ما فتحوا عيونهم أيضاً على أخطبوط التناقص وقد عمل عمله فيها ، فانقسم العلم أولا إلى قسمين . ثم إلى عشرة آلاف قسم . . .

وتحول القول المشهور « إن الرجل سيد نفسه » إلى « كل رجل هو عالم نفسه » وولد بذلك المذهب الحيوى لعلم ما وراء الطبيعة .

ولا هذا أيضاً أتى بالغرض المطلوب أو أوفاه حقه من التمحيص .

وعاد الفريق الأول إلى نظرية « تكاثر الأنواع » ولـكن المعضلة لم تنشأ من هنا ، لأن انقسام العلم صدع أركان الاعتقاد ، كما بدأ نيوتن يتحول عن مذهب التوحيد ، لأنه لم يجد معادلة للثالوث - اتحاد الثلاثة فى واحد ! !

وهنا أيضا يبدأ الطرف الجنونى للقصة يعمل عمله . فأزيحت القوانين العلمية من قواعدها القديمة ، ووضعت على قواعد جديدة أخرى تنص على أن الحوادث حدثت من جراء حوادث أخرى . .

وكان صاحب هذه العقيدة رجلا اسكتلنديا قال بأن هذا مجرد شعور فقط ، أى لا بد أن تكون هناك حوادث مباشرة تأتى بحوادث أخرى مشابهة . . .

وسرعان ما اعتنق العلماء هذا الشعور وأطلقوا عليه اسم « البديهة الضرورية » ولم تسلم القصة من الشرور أو درجات الجنون ، فتحولت بفضل بعض المجانين أيضاً إلى تقويض القوانين الطبيعية تقويضا من أساسه ، ونشروا العقيدة الجديدة التى تنص على أن « الخالق الحقيقى » لا ضرورة له ، وأن إلها خيالياً هو الذى يعوز العقل الحديث . وأن الفكرة القديمة التى تقول بأن الله أنقذ البشر قلبت إلى هذا الوضع الغريب الشاذ . وهى أن البشر هم الذين أنقذوا الله ! إلى غير ذلك من الأفكار التى اعتنقها علماء القرن العشرين الملاحدة من غير وعى . واتهموا الطبيعة بأنها عاجزة غير قادرة .

ولست أدرى إمعان هؤلاء فى الخلط بين حقيقة الأشياء وبين خيالهم ، بل كيف يسمون أنفسهم علماء . وهم أوهى الناس فكراً وعلما ! ! . . .

لو نظر هؤلاء إلى الشمس وهى تسطع بحرارتها توزعها توزيعاً عادلا على كل مخلوق فى هذا الوجود ، تنمى له الزرع والضرع ، وتسوى الفحم فى باطن الأرض لعرفوا أن الطبيعة قادرة وليست عاجزة ، وأن القوى التى تسيرها أقوى من كل القوى التى أوجدوها ، وأحكم وأعقل منها بكثير . . . وغير ذلك من الظواهر التى تثبت أن فى الكون إلها يسيطر عليه ويحركه فى كل طريق قويم . .

ولنعد الآن إلى رأى برنارد شو نفسه فى الموجود الأعظم ، فلا نخاله إلا أحد هؤلاء الملاحدة الذين ينتمون إلى الفريق الأول ، فقد كتب إلى الكاتب الشهير تولستوى الروسى يقول فى رسالة نشرها أرشيبالد هندرسون فى كتابه عن برناردشو ص ٥٢٩ بالنص الآتى :

« فى رأيى أن « الله » لم يوجد بعد . . . ولكن هناك قوة خالقة تعمل جاهدة على تكوين وخلق إله . وفى رأيى أيضا - إذا نحن لم ندرك أن هناك كفاحا مستمراً لإبراز هذا الإله الخالق - فإننا لا ندرك شيئا غير قوة متعاظمة قادرة على كل شىء ! ! »

وفى كتابه « الزنجية تبحث عن الله » الذى ظهر عام ١٩٣٢ يقول فى صفحة ٥٥ :

« إن اعتقادى الشخصى ، أن شيئاً يجذبنا « اليه » . وهذه حقيقة . . كما أن الشيء الحقيق الآخر ، أن هناك أخطاء كثيرة متشعبة تظهر فى الوجود . . » وهو بذلك يدعى أن « الله » وإن كان خالدا ، إلا أنه ليس أكثر من « غاية » وهذا الاعتقاد الغريب الذى ينص على أن الله عز وجل لا يزال يلق تجاربه ، ويرتكب أخطاء كثيرة فى هذا السبيل اعتقاد فاسد من أساسه ، كما أرى ويرى معى الناس . ولكننا آلينا على أنفسنا أن نفسر آراءه تفسيرا يكشف معالم الطريق للقارىء .

ماذا يكون حال الناس ، إزاء تفسير هؤلاء المفكرين الأحرار لنظريات الحياة !!

برنارد شو بشر مثلى ومثلك ، يرتكب أخطاء مثلى ومثلك . . . فماذا يقول برنارد شو إذن فى « إله » التطور الخالق ؟ . .

هل يمكن هذا الإله أن يقف على ساقيه لحظه واحدة . . . وهو الذى يغير معالم الأشياء ويطمسها على الدوام ؟ !

ماذا يكون رأى الناس فى إله متغير متقلب باستمرار ؟ !

وإذا كان برنارد شو نفسه لم يعتنق هذا المبدأ إلا بعد أن أعتقد وتأكد من نظافته وخلوه من الفساد ، وأقصد « قوة الحياة » فاعلم أيها القارىء أنه استمد نظريته واقتبسها من أناجيل الرسل فى الديانة المسيحية . أقول إنه طالع الأناجيل ودرسها وخرج منها بفكرة صاغها فى قالب آخر . وغير معالم الكلمات والآيات بكلمات أخرى بطريقته الخاصة فيقول مثلا « الضمير هو أقوى الغرائز وحب الله هو أقوى العواطف . . »

ثم يتخذ من أقوال بولس الرسول وتوماس الأكوينى حوارا يدخله فى روايته « الرجوع إلى متوشالح » عند ما تقول « ليليث » كيف أن الرجل والمرأة « خرجا إلى العالم فى دوامة التخلص من المادة . . . »

ولعل روايته الأخرى ـ القديسة جان دارك ـ أكبر دليل على تخبطه واقتباسه أفكار الخلود من الأناجيل التى درسها وأنكرها ، فيصف لنا يوم الدينونة « عند ما اختطف جان ليتخذها مثلا على تفوق « قوة الحياة » وهى تشق طريقها نحو الكمال أو نحو الأحداث العليا » . .

فبرنارد شو فى حالته هذه يعود إلى الفريق الأول، رغم أنه يختلف عنهم، وقد لا يعد منهم . فهو مفكر حر ، ولكنه لا يخدع نفسه كالآخرين بأنه غير محكوم « بالغرض أو بالغاية » . وعندما يعود إلى عواطفه وينادى بأعلى صوته « أومن بقوة الحياة » لا يكون كالآخرين ، يسلم بالهزيمة ، أو يلوذ من الغنيمة بالإياب . . .

ولقد حاول أحد النقاد مرة أن يسفه من رأيه فسأله قائلا : « ولكنك يا مستر شو تتحدث وكأنك شخصان ! ! »

فجاءه الرد سريعا : ولماذا اثنان فقط ؟ ! !

إنه لم يتخل عن الموقف الذى اتخذه لنفسه فى كتابه « جوهر الابسنية » الذى يحدثنا فيه عن أن « الإرادة » هى الفكرة الأولى والأخيرة . . »

وأن « الغاية » ما هى إلا احتيال ثانوى ، أو شىء آلى . . . فيقول « فخرنا منشؤه شعورنا بأننا بشر معقولون . ولكن هذا الفخر ما لبث أن ذهب ، وأصبحنا اليوم نضحك من هذا الزهو والغرور لأننا أصبحنا ذوى إرادة وعزيمة . . . »

قال ذلك وهو فى عامه الثالث والثلاثين . وعاد فى التاسعة والثلاثين يقول فى صفحة ٣٢٣ من كتابه « صحة الفن » ـ الحياة مرضاة لعاطفة فينا . . لا يمكن لنا بها أن نعطى حسابا معقولا ـ

وشو بالإجمال يكاد يكون معقولا فى كل شىء غير شىء واحد هو « الغاية » وهو أكبر مفكر حر فى كل شىء غير شىء واحد هو « الفكر » . ! !

وأما عن مذهبه « قوة الحياة » فهو مذهب لا يزال فى طريق النماء . ولا يمكن أن نعبر عنه بغير كلمة واحدة : هو مذهب متسلط على عقول الماديين المتطرفين ومنه يمكن الحكم بأن برنارد شو خاطىء كل الخطأ فى هذا الوهم . وإن كان على حق نسبيا فيما ذهب اليه .

كما أنه لا بد أن يكون قد ولد بعيداً عن ذلك الفريق الأول الذى تحدثنا عنه فى هذا الباب . فهم جميعا يتخبطون خبط عشواء ، ويضربون فى فضاء لا نهائى لا يصلون منه إلى حد فاصل لأوهامهم وخرافاتهم . .

وبرنارد شو يعرف مع هذا أنه مخطىء . وأن هذه الشرذمة مخطئة أيضا ، فينظر

اليها نظرة كلها حذر وتدقيق . ولعله يصف هذه الجماعة أحسن وصف فى كتابه المشهور « هارتبريك هاوس » الذى يتحدى به شكسبير .

ولكننا مع هذا كله لا ننكر على الرجل عروضه وشروحه . وعلى الأخص بعد أن تحققت بعض أحلامه . فالسبرمان أوشك على الظهور ، وأصبح وشيكا أن يسير بين ظهرانينا فنلمسه ونتعرف عليه ونتكلم اليـــه ، وأصبح شبحه متجسما فى تقدم العلوم تقدما مخيفا مرعبا يفزع العالم الحديث .

برناردشو رجل يناقض نفسه ، مربك إلى أبعد درجات الارتباك . . . عسير حله . يعطيك الفكرة ، ويسهب ويطيل شرحه لها ، ثم يهدمها فجأة وبدون سابق انذار من أساسها ، فإذا قلت له كيف تهدم ما تقول ، وتناقض آراءك بهذه السهولة أجابك : عد إلى النظرية أفهمها جيداً ثم احكم بنفسك ماذا تكون نتيجتها ؟!

يدعى برنارد شو بأنه ليس هناك « حق » ويضيع حياته بحثاً عنه !!

يقول بأن المعاهد تفسد الروح البشرى ، ثم يبنى هو معابد ليحررها !!

ويقول إن الله جل جلاله غير موجود ، ثم يرسل زنجية تبحث عنه !!

ويقول بأن « دينه » مبني على العلوم الأكيدة ثم يدحض العلوم وينكرها !!

ويقول بأنه وجـــد الدين الصحيح . . ثم يعود فيقول إنه ليس هناك ثمة دين صحيح !!

فى عدد من جريدة « المستمع » بتاريخ ٢٣ يوليه ١٩٣٧ كتب برنارد شو مقالا سخر فيه من هؤلاء الذين يحبون أعداءهم ويباركون لاعنيهم !

وبعد أيام قليلة أذاع حديثاً على طلبة المدارس يقول فيه :

« أحبوا هؤلاء الذين تبغضونهم ، وعاملوهم كما تعاملون أعز أصدقائكم . »

هذه المتناقضات هى التى تجبر الإنسان على التبرم به والتشكك فى أقواله . .

وقس على ذلك ألف دليل ودليل . ولكنك ما تكاد تناقشه ، حتى ينسيك موضوع المناقشة ، ويؤكد لك أن أقواله صحيحة ، وقد تقتنع بذلك فوراً ، ولكنك ما تكاد تتركه ، حتى يساورك قلقك وشكوكك ، وهكـــذا تعود فتقول إنه مخطىء ومتناقض مع آرائه وتعاليمه . .

ولعل المتناقضات التى جاءت في كتابه « دليل المرأة الذكية فى الاشتراكية » هى التى حملت الكاتبة « مسز لى مسورير » إلى نقده والرد عليه فى كتاب تقول فيه : « اغضبنى برنارد شو هذا غضباً شديداً ، فوضعت أمام القارىء بمهارة فائقة بعض ما جاء فى كتابه من خلل وتصدع . ومن المدهش أن الرجل الذكى العادى أوفر ذكاء من برنارد شو » وفاتها أن تذكر كلمات برنارد شو :

« وحتى الرجل الذكى سيعتقد فيما يرغب أن يعتقد به ، رغم أنف كل الحقائق وكل ما فى الكتب من آيات . . »

فاتها أن تقف على هذه السطور وتحللها تحليلا مناسبا لتعرف أن شو ليس محرفا أو غبيا . . .

أمطرت الكاتبة برنارد شو ، فى حوالى مائتى صفحة استعملت فيها جميع كلمات السباب وراحت تصفعه فى كل صفحة من صفحات الكتاب ، حتى إذا ما أتت على النهاية فقدت صوابها ، وأنهكها التعب وأخذ منها كل مأخذ . . بدأت تعيد كلمات شو وتتفق معه فى كثير ، وهكذا تخلط بين المعانى فلا تعرف كيف تفندها . .

ثم استمع إلى ما قاله الأستاذ جون ستارشى فى عدد من مجلة « النظارة » الصادر فى ٦ نوفمبر سنة ١٩٣٦ :

« إن برنارد شو خاطىء . لا لأنه يناقضنى ولا يتفق معى . ولكن لأنه لا يتفق مع أهداف الإشتراكية التى كتب عنها . وبالطبع كان برنارد شو حراً فى اختيار الألفاظ والمعانى لو أنه فقط أفهمنا ذلك . ولكنه لم يفعل فسبب ارتباكات شديدة مختلفة . . »

الحب فى نظر برنارد شو

وخير ما نختتم به هذا الباب ، أن نذكر ما يقوله برنارد شو عن الحب . . وقد استهواه رأى « لاروشفوكلد » - (إن قليلين من الناس لا يقعون فى الحب لأنهم لم يقرأوا عنه شيئاً . .)

ويعالج برنارد شو موضوع الحب فى كتابه « مغامرات الفتاة السوداء فى بحثها عن الله » وعلى الصفحة السابعة من الكتاب يصف برنارد شو الفتاة بقوله :

« . . . فى الغابة الافريقية كانت تعلم أطفال الزنوج حب (١) المسيح

والصليب . وكانت مولودة كرسولة حب (٢) وفى المدرسة أعجبت بأحد مدرسيها إعجاباً متيناً . ولم تكن انهتم بزميلاتها اللواتى ساويتها فى السن والمعرفة . وفى الثامنة عشرة بدأت تقع فى الحب (٣) مع رجال الإرسالية. ثم أضحت مخطوبة لستة منهم على التعاقب . ولكن عند ما جد الجد ، فسخت هذه الخطبات ، لأن حوادث الحب (٤) هذه كانت أولا مليئة بالحماس والأمل ، ثم فترت ، فأفلتت هى منها فى آخر الأمر ..

ورجال الدين أنفسهم عند ما تنبهوا إلى الحقيقة فجأة اكتشفوا أن الحب كان حلماً فقط ، أو نوعا من المجاز ، جاهدوا هم أن يفسروه تفسيراً دقيقاً ، ولكنهم فشلوا جميعاً ..

وانتحر أحد هذه الضحايا . وتركت هذه المأساة فى الزنجية أثراً بالغاً ، وأدخلت على نفسها نوعا من الفرح والاعتداد بالنفس . أى أنها انتقلت من جنة الحمق إلى عالم حقيقى يصبح الألم الدفين فيه سروراً بالغا ..

وهذا هو مفتاح كلمة « حب » كما يفسرها برنارد شو ..

الحب (١) حب بر وإحسان ..
الحب (٢) « ١ و ٣ أو ٤
الحب (٣) « تأله وغرام
الحب (٤) « ضلال وفساد ..

ولننتقل الآن إلى فصل آخر من مغامرات الزنجية الحسناء . فى هذا الفصل تكون الزنجية قد امتلأت بروح « السبرمان » فتقول :

« رأيت ملوكا أردأ من هذا ، فيجب ألا تخجل .. وعلى كل فلتكن أنت الملك سليمان ، وأنا الملكة سبأ .. كما جاء فى الانجيل .. فأتى أنا اليك وأقول .. أحبك !! وهذا معناه أننى أتيتك لأمتلكك .. أتيت بحب لبؤة لأنتهمك وأجعلك جزأه

منى .. ومن اليوم يا حبيبي عليك أن تفكر ، لا فيما يدخل السرور على نفسك ، بل في سعادتي أنا وفيما يطربني ويفرحني ..

سأقف بينك وبين نفسك .. بينك وبين الله ..

أليس هذا ظلماً مجحفاً ؟!

فالحب شيء ملهم .. هل تتخيل السماء وفيها حب ؟ »

فيجيبها الساحر بنبرات ثابتة وإن كانت مرتعشة !

« أليس في سمائي شيء آخر غيره .. وماذا يكون في السماء غير الحب ؟ »

فتجيبه الزنجية :

« هناك المجد .. إنه بيت الله وأفكاره .. ليس هناك أصوات جلبة وغوغاء .. فالمبشرة استاذتي حدثتني حقا عن الحب ، ولكنها كانت قد فرت من جميع عشاقها ومحبيها لتعمل عمل الله ..

فالبيض يبعدون عيونهم عني .. لئلا يقعوا في حبي ..

إن جماعات كثيرة من النساء والرجال وهبوا أنفسهم لخدمة الله .. ورغم أنهم جميعاً إخوة وأخوات .. ولكنهم لا يتحدثون بعضهم لبعض .. »

والغريب أن برنارد شو نفسه كان متعجبا من مغامرات الزنجية الحسناء . ويقول لقرائه في صفحة ٥٩ من الكتاب بأنه أوحى اليه أن يكتب الرواية ، ثم أنذرهم « ربما تكون هذه الرواية لغو وهراء .. »

ويقول أيضاً .. « على ضوء خبرتي وتجاربي أقول إن قوة الوحي قد تكون مخطئة خطأ تاما فيما توحي به كما جاء في كتاب « الحرب المقدسة » لبنيان ، فكتابه لغو لا طائل من ورائه !! »

برنارد شو شخصيتان

يقول الأستاذ هاكت : إن جورج برنارد شو منقسم إلى شخصيتين : شخصية جورج وشخصية برنارد .

وأحدهما وهو جورج « نبي » لايفطن اليه الرأى العام ..

وثانيهما وهو برنارد رجل له نظرات مدهشة ثاقبة ، بل هو شديد الملاحظة . يجمع الحقائق اينما سار ، ثم يعطيها لجورج لتقييدها . وهو رجل شديد المراس . يحترم « قوة الحياة » ويعمل تحت مباشرتها وإرادتها .

فقد جمع لها المواد ليمكن « للتطور الخالق » أن يكون دين القرن العشرين .

ولكن الحقيقة أنه كثيراً ما يتقدم برنارد ليلقى نظرة على إله جورج ، ثم يهز رأسه عجبا ويقول بأنه لا يعتقد لا في إله جورج ولا فى جورج نفسه .

ولكنه يعتقد بأن جورج يتحدث ، ويتحدث بدون توقف حتى أصبح كجاك تانر !! »

وبمعنى قريب ، يقول هاكت أيضا : « إن جورج لا يعترف بالاصطلاحات المجردة ، ولكنه يقـــدم لنا صوراً سريعة دقيقة المعالم . كلها تحتوى على عواطف نبيلة ورفيعة .

وأخيراً لجورج عبد ، لأنه يسجد لاعتقاده ، ويعبد « قوة الحياة » . إنه يعمل لها أو قل الحقيقة أنها هى التى تعمل فيه !!

أما « برنارد » فرجل حر ، لأنه يقدر قيمة الحرية ، وقوة الاختيار ، ويرفض هذا المجد الزائف الذى يتمتع به جورج ويهيم فى أوديته على غير هدى . !! »

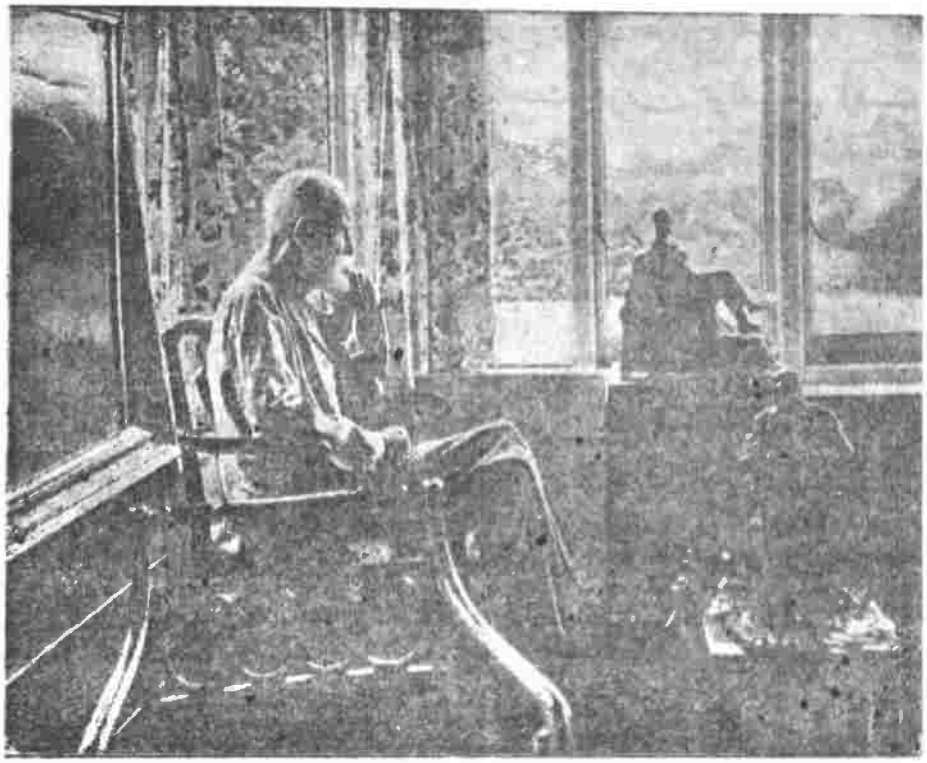

المفكر الحر